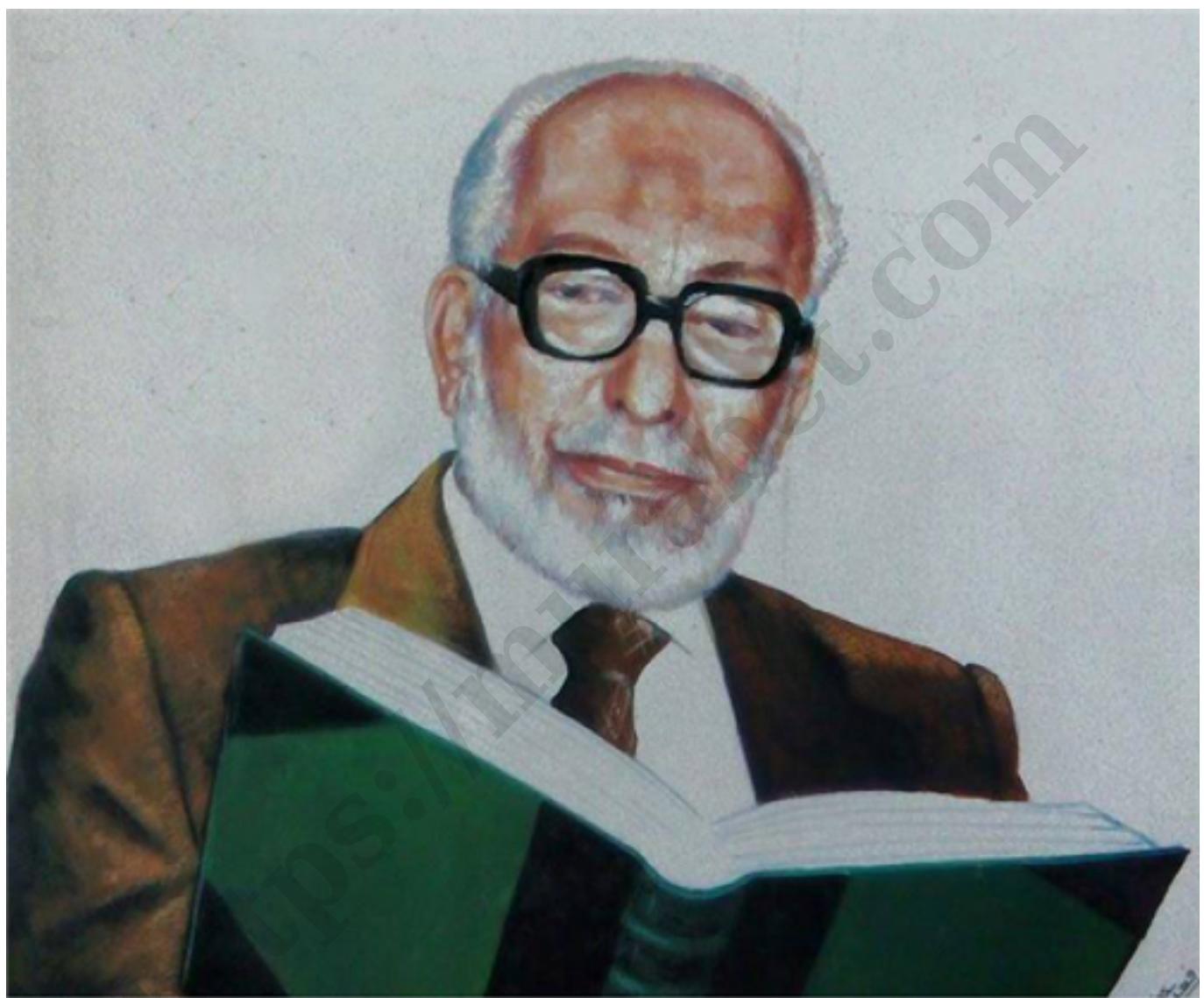


# الحضارة المتبرجة

الكاتب: محمود شاكر



أبو فهد محمود محمد شاكر

أُعْطِيَتْ هَذِهِ الْحَضَارَةُ الْأَوْرِيَّةُ الْحَدِيثَةُ أَعْظَمَ رُوحَ مِنَ الْفَنِّ كَانَ فِي الْأَرْضِ، مِنْ لَدْنِ آدَمَ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا. وَهَذِهِ الرُّوحُ الْفَنِّيَّةُ – عَلَى سَمْوَهَا فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا إِلَى غَايَةِ مَا يَتَسَامِي إِلَيْهِ الْخَيَالُ الْفَنِّيِّ – تَتَسَاقْطُ وَتَتَدَنَّى وَتَتَحدَّرُ مِنْ جَوَانِبِهَا إِلَى أَدْنَى مَا يُبَتَّذِلُ مِنَ الْفَنِّ الْعَامِيِّ الْمُثِيرِ لِأَشَاءِ الْغَرَائِزِ الْحَيْوَانِيَّةِ فِي الْإِنْسَانِ. وَبِهَذِهِ الرُّوحِ الْفَنِّيَّةِ عَالَجَتِ الْحَضَارَةُ الْأَوْرِيَّةُ مُشَكَّلَةَ الْحَيَاةِ السَّرِيعَةِ الدَّائِبَةِ الْمُثَقَّلَةِ بِأَعْبَاءِ الْعَمَلِ، فَاتَّخَذَتْ لِكُلِّ مُلْلٍ رَاحَةً وَاسْتِجَامًا، بَلَغَتْ بِهِمَا غَايَةَ الْلَّذَّةِ الْفَنِّيَّةِ، تَلَكَ الْلَّذَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ الْأَعْصَابَ الْمُجَهَّدَةَ إِذَا أُوتَتْ إِلَيْهَا كَأْنَمَا تَأْوِي إِلَى بَيْتِ ذِي رُونَقٍ وَزَخْرَفٍ وَعَطْرٍ وَضَوْءٍ يَغْمَغِمُ الْحَانًَا مِنَ الْفَنِّ الْمُوسِيقِيِّ، فَإِذَا بَلَغَتْهُ اسْتِنَامَتْ بِإِجْهَادِهَا عَلَى حَشَايَا الْخَزّْ وَالْدِبِيَاجِ، نَعْوَمَةً وَلِيَنًا تَرَسَّلَ فِي الْأَعْصَابِ لَذَّةً تَمْسَحُ الْجَهَدَ حَتَّى يَسْكُنَ وَيَخْفَ ثُمَّ يَتَبَدَّدُ.

وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ هِيَ فُنُّ الْفَنِّ لِلْإِنْسَانِيَّةِ، وَهِيَ الشَّاطِئُ الْوَادِعُ لِبَحْرِ الْحَيَاةِ الْمُتَمَوجِ، وَكَانَتِ الظَّلَّ الرَّطِيبُ فِي بَيْدَاءِ مُوقَدَةٍ تَحْتَ أَشْعَةِ الشَّمْسِ الْمُحْرَقَةِ، وَكَانَتِ هِيَ السَّكُنُ لِلْقَلْبِ الْمَسَافِرِ دَائِمًا فِي طَلْبِ أَسْبَابِ الْعِيشِ وَالْحَيَاةِ. فَجَاءَ فِنِّ الْمَدِينَيَّةِ الْحَدِيثَةِ فَجَعَلَ الشَّاطِئَ بَحْرًا آخَرَ يَمْوِجُ مَوْجًا فَنِيًّا مَغْرِيًّا، يَجْعَلُ السَّبَاحَةَ الْمُجَهَّدَةَ فِيهِ ضَرِيًّا مِنَ الْرَاحَةِ، وَتَرَكَتِ الظَّلَّ الرَّطِيبُ حَرَارَةَ مُسْتَعِرَّةٍ تَحْرُقُ، وَلَكِنَّهَا تَحْرُقُ بَلَذَّةً، وَفَرَشَتِ السَّكُنُ حَتَّى مَدَّتْهُ طَرِيقًا بَعِيدًا مُتَرَامِيًّا يَسَافِرُ فِيهِ الْقَلْبُ سَفَرًا بَعِيدًا فِي أَحْلَامِ وَفَتْنَةِ وَجْدَيْدٍ لَا يَتَقَادِمُ.

### قطرات الفتنة

وَبَدَأَتِ الْمَرْأَةُ بِدَعْهَا لِتَجْعَلُ الْحَضَارَةَ فَنًا جَدِيدًا مِنْ تَجْمِيلِ الْحَيَاةِ لِلْمَكْدُودِينِ. ثُمَّ جَاءَتِ الْحَرَبُ الْمَاضِيَّةُ، فَخَرَجَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ وَطِيسِهَا الْمُتَوَقَّدِ قَدْ اسْتَوَتْ

ولذَّت وطابت، وتتجدد عقلاً وروحًا وجمالًا، وشاركت أسباب الحضارة في إيجاد حلٌّ جديد لمشكلة الإنسان العامل المنطلق في أعماله بسرعة وكد وإرهاق وعنااء، فاتخذت فنَّ العقل السامي عبداً تصرُّفه في إنشاء لذات الحياة إنشاء عبقياً، تخشع لسلطانه النفس خشوعاً راضياً، ثم تمشي في جناته. تأبى أن تجد راحتها إلا راحة فيها، ذلك السحر الناعم الرقيق الفاتن، الذي يصنعه بنان مؤنث يقول للأشياء: كوني جميلة. فتكون.

وأعطت العين للمرأة أشواقها المستبدة، وزينت المرأة للعين متاعها المتجدد، فاستيقظت الغرائز كلُّها من هزَّة الأسواق وحبِّ الاستمتاع، وانحدرت في دم الرجل قطرات الفتنة المؤنثة، وسطعت في كيانه كلُّ نفحات العطر المعبرد، وألقت المرأة ظلَّها على كلِّ شيء ألواناً تتخالب بالفن المنسق البديع، وصبت كلَّ شيء في حلاوة أنوثتها، حتى لم يبق للرجولة ولا للإنسانية هو في الحياة إلا وهو من المرأة، وإلى المرأة، وفي سبيل المرأة.

وصارت المرأة هي المحور الذي تدور عليه الإنسانية في فلك الشهوات الضاربة التي تنزع منهاها في حياة الإنسان باقتدار وقسر، وسار العالم كله على ذلك حتى ما يحسُّ ذو شعور أنه يعمل من أجل المرأة، مع أنه ما يعمل عامل إلا من أجلها. فهو في نشوة متصلة لا تنتقطع في عمله، لأنَّ الغرائز المنتشية هي التي تحكم وتصرف، وبذلك لم يبق له من الفكر ما يستطيع به في هذا الأمر أن يتبيَّن حقيقة التيار المسكون الذي يتداول به في حياته.

## إسقاط مطالب الروح السامية

أصبحت الحضارة الأوربية بعد ذلك فنَّا جميلاً يتواли فيه زخرف الحسن مبعثراً ومنتظماً، لأنَّ الأعمال كلها قد احتملتها إرادة واحدة، هي إرادة جعل الحياة أجمل مما هي؛ لتكون أمتع للعين والقلب والنفس والغريزة، مع إسقاط

## مطالب الروح السامية المتحررة من استبعاد الشهوات.

ومن عجيب تصريف القدر في الحياة أن يجعل أعظم شيء فيها هو أقل الأشياء حظاً من الحياة، فالروح التي هي أعظم ما وجد في الحياة، ترجع في غمرة اللذات والشهوات وأمواج الغريزة الطاغية، أقل ما وجد في الحياة، حتى ما يكون لها نصيب منها إلا ذلك الجو الأغبر القائم في عزلة موحشة، بعيدة عن تحقيق لذاتها الروحانية الحلوة التي تبقى حلواتها خالدة في الهرم بعد الشباب، وفي العجز بعد القدرة، وفي السكون بعد الحركة وفي الموت بعد الحياة. وتقف الروح متغضنة جافة متكسرة، تنظر نظرة متألمة إلى ما يصيب الإنسان من اللذات الطارفة الطارئة، التي تحول في نار الشهوات رماداً بعد توقد واحتعمال.

فاعتزال الروح في هذه المدينة الأوروبيّة قد جعل العالم يعيش ليحرق بأسرع ما يمكن أن يحرق، وهذا هو العلة في امتياز هذه المدينة بالسرعة والنشاط والتوقّد، واحتمالها متاعب الجهد المضني في سبيل استغلال أقصى ما يستطيع الإنسان من الإنتاج في العمل، ثم امتيازها بنظام الطبقات الذي تجدها أن تستره بتلك الزينة الفنية العلمية الظاهرة، لئلا يكون معنى ذلك أن المدينة تريد أن ترتد بالناس إلى الحالة الطبيعية الوحشية اللثيمية التي ينتجها اجتماع همجي مستبد لا يعقل، وإنما يكون فيه اللذة التي تسكر العقل، والظلم الذي يثير العقل، والأثرة التي تطغى العقل.

## اشتراك المرأة في الحياة الأوروبيّة

وجاء اشتراك المرأة اشتراكاً عملياً في الحياة الأوروبيّة العامة؛ ليقذف الروح بعيداً في عزلتها، ويدني غريزة تشთاق إلى غريزة تشوق، فكذلك بدأت الأنظمة الأدبية والاقتصادية والمدنية تخضع لسلطان الأسواق وحدها، دون سلطان

الروح والعقل، وسلطان الأشواق هو الذي يكون غرضه دائمًا أن يضيق ويتخصص وينفرد بأسباب شوقيه، وسلطان الروح والعقل هو الذي يتراحب ويشمل ويعمّ ويوجد المساواة بين الناس، مهما لقى من العنت والقسوة في وضع النظام الذي يريد أن يجعل به الناس أحراً في قيود من الإنسانية السامية المترفة عن الذل، كما تترفع عن بغي السلطة، والتي تستنكر العبودية الخاضعة، كما تستنكر الحرية الفوضى، والتي تأبى تحكم طبقة في طبقة، كما تأبى ثورة طبقة على طبقة.

ولكن تبرج الحضارة الأوربية في ذلك الخلق الجميل الفتّان ذي الحيلة والفتنة والسحر الذي يعيش في صورة الأنثى، قسر هذه المدنية على الخضوع لسيطرة الشوق المتمرد، فقام النظام كله على هوى واحد إلى المرأة. فالعامل الذي يعمل يريد أن يستغل الحياة بين يديه، لا ليعيش ويعيش معه أهله وبنوه، وتلك الدولة الصغيرة التي تسمى البيت، بل هو يعمل ليجد أولًا تلك اللذة الحاكمة الممتعة التي يستمتع بها في ظل تلك الدولة العظيمة التي تسمى المرأة.

وإذا بدأت الطبقة العاملة من الشعب تجد حواجز أعمالها في شيء بعينه، كانت كل أعماله من الأدنى إلى الأعلى، لا تجد في أعمالها إلا هذا الحافر الواحد، وإذا تشابهت الحواجز تشابهت الغايات، وما يفترق هذا عن ذاك إلا بأن لكل شيء أسلوبًا، ومهما اختلفت الأساليب في هذا، فلن تختلف في الدلالة إلا بمقدار الأصل العملي الذي يوجب هذا الاختلاف. والمكان الذي نصت عليه عروس النفس الإنسانية في هذه المدنية الحديثة، هو الحافر وهو الغاية..

ولذلك تجد هذه المدنية قد تبرّجت لأبنائها تبرّج الفن العقريّ الحافل بأسباب التحكم المستمر في أعمال كلّ حيٍّ. ولما كانت هذه الحواجز على تعددتها إنما هي في الحقيقة اختصاص فردي لكل واحد من الناس—لأن اللذة لا تقبل الشركة والتعدد—ولكل اختصاص عيب هو الأثرة، والإصرار على التفرد،

ومعاندة الناس بعضهم بعضاً في سبيل هذا التفرد - وقع التضارب والتعادي والانتقاض في كلّ عمل، وصار ما يُبَنِّى لا يكاد يَتَمُّ حتى يلقاء ما يهدمه، وبذلك كان نظام هذه الحضارة مع روعة ما يُبَنِّى يقابله نظام آخر في الهدم والتدمير، يخيف هذا بقدر ما يروع ذاك.

ولولا هذا التبرج الفاجر في هذه المدنية، ولو لا هذه الشهوات التي انطلقت تشرف من مسارات الفن المتبرج، ولو لا هذه الغرائز الجامحة في طلب السيطرة لإدراك غاية اللذة، لما كان النظام الاقتصادي الحاضر في هذه المدنية هكذا مهدماً مستعبداً مستثاراً باغياً، ولما تعاندت القوة الدولية هذا التعاند الذي أفضى بالعالم إلى الحرب الماضية، ثم إلى هذه الحرب المتلهبة من حولنا اليوم؛ وذلك في مدى خمسة وعشرين عاماً، لم يستجمع العالم خلالها قوته، ولم يتَّالَّف ما تفرَّق، إلا ليضيع قوته مرة أخرى ويُتفرق.

إن الحضارة في هذه السنوات التي تبع الحرب الماضية، كانت ترْفَه عن المكدودين ترفيها الحلو الغني المتبرج؛ لتعطي القوى العاملة نشاطاً جديداً من النشوة، أي من الحالة التي يفقد فيها العقل والروح قدرتهما على التحكم في نظام الحياة.

## الحرب والمرأة الأوروبية

وأقدمت المرأة الأوروبية إقدامها الجريء فجلبت زينتها من كل خيال، ومن كل فنٍ، ومن كل سحر؛ لتعيين الحضارة على الحياة والبقاء في هذا الجو الذي اختارته وعملت له. وكان هذا الإقدام ضرورة طبيعية للمقدمات التي سبقت عصر الحرب الماضية، ثم للحرب نفسها. فإن المرأة التي فقدت زوجها، والفتاة التي أضلَّت حبيبها، والبنت التي أضاعت قيمها من أب أو أخ أو عم،... وبيقيت في موج الحياة حيرى متلبدة [أي: واقفة مت حيرة لا تدرِّي أين

تذهب]، لم تجد بُدًّا من الإقدام على الطريق المجهول بجرأة واندفاع وتهور، فلما أوضعت [أي: أسرعت] في الطريق المجهول، وأسرعت خطها جرى العالم وراءها يطلبها، فلم تجد بُدًّا من أن تأخذ منه أكثر ما تستطيع لتجتلي لزینتها أحسن ما تستطيع، وطارد الصيد للصائد في كُل وجه، حتى اصطدم العالم كله هذا الاصطدام الهائل الذي لا يدرى إلى أين ينتهي، ولا كيف ينتهي.

وستخرج المرأة من هذه الحرب أيضًا كثيرة فاتنة حائرة، لا تجد أباهَا ولا زوجها ولا أخاهَا ولا حبيبها، وستكون في عينيهَا تلك النظرة الحزينة الضارعة التي تقول لك: أنقذني! أنقذني!! أنا وحدي، لا أحد من يعونني! وسينظر العالم الجديد إلى هذه المرأة بالرحمة والعطف والحنان، كما نظر للواتي كن بعد الحرب الماضية. وستعمل المرأة يومئذ لتكتسب الرجل في كل وجه، ثم لا تلبث أن توجد من بقايا العالم المتحطّم سحرًا جديداً لمدنية ساحرة، وبذلك يرتدُّ العالم إلى النظام الاقتصادي الفاجر المبني على اللذة وطلبهَا والبحث عنها، فتكون أنظمته كلها قائمة على الاستبداد، والفجور في الاستبداد.

## أشراط الساعة

ويومئذ يبدأ تحقيق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشراط الساعة وما يكون في أعقاب الدهر، إذ (يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد)، وحتى (ترى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به). وما يكون ذلك إلا يوم يتحقق للحياة المعنى الفني الممحض، الذي لا يعرف قاعدة اجتماعية يحرص على تحقيقها لل المجتمع، والذي يرى الحرية انطلاقاً من قيد الأخلاق، التي تقسره على مصلحة الجماعة دون لذة الفرد.

وتتبرج الحياة تبرجاً هائلاً يجعل العقل غريزة جديدة تشهي، والروح خلقاً منبوذاً حائراً يطوف على هذه الفتن، كما يطوف الصعلوك على مائدة ملكية. ويومئذ يرفع العلم؛ لأنّه سيستبعد في إيجاد اللذات، وتفارقه الروح النبيلة التي لا يكون العلم إلا بها علمًا، ولا يبقى في الأرض إلا الجهل الأحمق، الذي لا يعرف إلا السيطرة بحمامة، والاثرة بكلب، وتكون المرأة هي علم الحياة الجديد الذي يمزق الرجولة القليلة في جذب الشهوات العنيفة، ويغرق الفضيلة في طوفان المتعة الجميلة التي تبعث في الأعصاب المجهدة نشوة مسكرة.

---

#### المصدر:

١ . جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر، ص216

---

الكلمات المفتاحية:

#جمهرة-المقالات #محمود-شاكر

---

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.